المحاضرة السادسة: مصطفى بوتفنوشت

العائلة الجزائرية التقليدية بالنسبة بوتفنوشت:

تعرف بوتفنوشت العائلة الجزائرية التقليدية بأنها وحدة أسرية موسعة تضم عدة عائلات زواجية تعيش معًا تحت سقف واحد، سواء في "الدار الكبرى" لدى الحضر أو "الخيمة الكبرى" لدى البدو، حيث يمكن أن يتراوح عدد أفرادها بين 20 و60 شخصًا أو أكثر. يتفق الباحثون في الثقافة الجزائرية على أن تنظيم هذه العائلة يعتمد على مفهوم العمودية، في إطار ثقافة النظام الأبوي التي تحكم العلاقات داخلها، وتمتد تأثيراتها إلى مختلف جوانب الحياة الاجتماعية، السياسية، والاقتصادية. في هذا السياق، يحتل الأب مكانة مركزية، إذ يُعتبر مصدر السلطة والحقيقة والمقدس داخل الأسرة. نتيجة لهذا الوضع، يكون مسؤولًا عن حماية أفراد عائلته وتأمين مكانتهم داخل الجماعة، بينما يُطلب منهم في المقابل الطاعة والاحترام، وأحيانًا التقديس. هذه العلاقة السلطوية تفرض طاعة الأب حتى وإن كان مخطئًا، مما يجعل مفاهيم الديمقراطية، الاستقلالية الفردية، حرية التعبير، والنقد غير مرحب بها، بل تُعتبر خروجًا عن الأعراف وتحديًا للإرادة الجماعية. وضمن هذا الإطار، يُنظر إلى أفراد العائلة على أنهم جزء من كيان جماعي، حيث تتمازج مصلحتهم الشخصية مع مصلحة العائلة والمجموعة الكبرى. كما أن العائلة التقليدية في المجتمع الجزائري لم تكن تتمتع بحرية كاملة في اختيار...

عندما نتتبع تطور العائلة الجزائرية من الفترة التي سبقت الاستعمار وحتى اليوم، نجد أنها كانت تقليدية بامتياز وفقًا لتعريف بوتفنوشت. ورغم التغيرات العميقة التي أحدثها الاستعمار، إلا أن العائلة الجزائرية ظلت متمسكة بدينها وتقاليدها، حيث كان هذا التمسك ضروريًا للحفاظ على الهوية ومقاومة المستعمر. وبعد نيل الاستقلال، بدأ التساؤل حول مدى استمرار هذا النموذج العائلي التقليدي.

تظهر الدراسات الميدانية التي أجراها بوتفنوشت في أواخر السبعينات، وأبحاث أوصديق عام 1988، أن بنية العائلة الجزائرية قد شهدت تحولات ملحوظة. فقد أظهرت النتائج أن نسبة العائلات النووية أصبحت تساوي تقريبًا نسبة العائلات المركبة، حيث بلغت 51.3% و48.7% على التوالي. يمكن تصنيف العائلات الجزائرية إلى نمطين رئيسيين: العائلة النووية، التي تتكون من الأب والأم والأبناء، والعائلة المركبة، التي تضم عدة أزواج مع أطفالهم تحت سقف واحد.

ومع ذلك، لا تتفق جميع الدراسات مع هذا الرأي القائل بانتقال العائلة الجزائرية إلى النمط النووي. فمثلاً، ترى الباحثة لوراس–لوكو أن العائلة الجزائرية لم تشهد تحولًا جذريًا نحو النمط المحدود، بل تطورت إلى نموذج "العائلة النووية الموسعة"، حيث تستمر النواة العائلية الأساسية مع انضمام أفراد آخرين من الأقارب.

ومن بين الأسباب التي أدت إلى عدم تحول العائلة الجزائرية إلى النمط النووي، نجد أزمة السكن، حيث يضطر الكثير من الشباب للبقاء في منزل العائلة حتى بعد الزواج. بالإضافة إلى ذلك، تلعب العوامل الاقتصادية والاجتماعية دورًا كبيرًا، مثل استضافة العائلات الحضرية لأفراد من الريف بحثًا عن فرص عمل، واعتماد الأمهات العاملات على أفراد الأسرة الممتدة

لرعاية الأطفال. كما أن تأخر سن الزواج يعد من العوامل المؤثرة، حيث يضطر الشباب للعيش مع أسرهم لفترات أطول بسبب مواصلة التعليم العالي أو مواجهة البطالة. ورغم هذا التمسك النسبي بالنموذج التقليدي، تشير بعض الدراسات، مثل دراسة بوتفنوشت، إلى أن النظام الأبوي لم يعد صارمًا كما كان في السابق، بل أصبح أكثر رمزية. اليوم، لم يعد الأب هو صاحب القرار الوحيد في العائلة، بل تُتخذ القرارات العائلية بالتشاور مع الأم، خاصة إذا كانت تعمل، ومع الأبناء البالغين.

في هذا السياق، تشير الباحثة قرآن (Graine) إلى أن العائلة الجزائرية تتأثر بعدة عوامل ثقافية، حيث تتداخل التقاليد الإسلامية مع الثقافة المتوسطية التي تتميز بالنظام الأبوي. ومع ذلك، لا يمكن تصنيف العائلة الجزائرية بسهولة ضمن النموذج التقليدي أو الحديث، بل هي مزيج من الاثنين، مما يجعلها كيانًا ديناميكيًا وقابلًا للتكيف. وكما تقول لوراس–لوكو عن العائلة الإفريقية، يمكننا أن نقول إن العائلة الجزائرية "تصنع الجديد من القديم" (Fait du neuf avec du vieux)، حيث تستمر بعض القيم التقليدية مثل التعاون والتضامن بين الأجيال، رغم التغيرات الاقتصادية والاجتماعية.

في ظل هذا المشهد، يرى بعض الباحثين مثل سلاطنية ومالكي أن العائلة الجزائرية لم تتغير بشكل موحد، بل ظهرت أنماط متنوعة؛ فبعض العائلات تبنّت الحرية والانفتاح ورفضت التقاليد، بينما حافظت أخرى على القيم التقليدية ورفضت المعايير الحديثة، في حين اختارت بعض العائلات التكيف مع المستجدات مع الاحتفاظ بجزء من التقاليد والقيم الدينية.

وفقًا لتحليل مكيري، يمكننا تصنيف العائلة الجزائرية المعاصرة إلى نوعين رئيسيين بناءً على مفهومي العمودية والأفقية:

1. العائلة أحادية المنظور: هذه العائلات إما مغلقة على نفسها، متمسكة بالتقاليد وتعارض أي تأثير خارجي، أو أنها ترفض تمامًا الثقافة التقليدية وتفتح أبوابها بالكامل على الحداثة. كما يشير بوتفنوشت، فإن النموذج الأخير قد قطع بشكل جذري مع التقاليد لصالح نظرة عقلانية للحياة.

2. العائلة ثنائية المنظور: هذه العائلات تجمع بين القيم التقليدية والانفتاح على التحديث، وتنقسم بدورها إلى:

– عائلات توافقية: تعيش في منطقة وسطى بين النموذجين التقليدي والحديث، دون أن تنتمي كليًا لأي منهما، مما يجعلها في حالة تحول دائم.

– عائلات منسجمة: استطاعت التكيف بسلاسة مع التغيرات، حيث تبنت مفاهيم حديثة مثل المساواة بين أفرادها، دون أن تتخلى عن القيم التقليدية والدينية.

في الختام، يمكن القول إن العائلة الجزائرية لم تفقد هويتها التقليدية بالكامل، لكنها أيضًا لم تبقَ كما هي، بل شهدت تحولات مستمرة جعلتها كيانًا متغيرًا يجمع بين القيم القديمة والتطورات الجديدة، في إطار من التأقلم مع تحديات العصر الحديث.